سيرة جديدة للتمرد

أعتقد ان الذات التى تنتج الشعر الان،اصبحت ذاتاً مهددة ، لاتشعر بثقة فى المستقبل. تحولت إلى ذات اجتماعية مهمومة أكثر منها ذات شعرية متجاوزة. هناك تحول فى السياق الذى تتحرك داخله الذات الشاعرة ، فلم تعد من أولوياته هذا النوع من التفسير والتأويل للحياة. حدث انفصال بين الشعر والسياق الاجتماعى الذى يحوطه، وفقدت الثقافة شعريتها وقدرتها على التخيل. ربما يكون الخطأ مزدوجاً،أن تشعب وتعقيد السياق الاجتماعى أصبح فوق احتمال أدوات الشعر وقدرتها على الاستيعاب. وكذلك فإن الآدوات الشعرية لم تتطور لتعبر عن لحظة راهنة عشوائية.

وكما أن ثقافتنا لم يعد لها ثوابت أو محاور ارتكاز؛أصبح من الصعب تثبيت اشكال شعرية بعينها وضمان استمرارها. لأن الشكل الشعرى ، والنثرى بوجه خاص، هو الآكثر حساسية وتأثرا لغياب الثوابت التى كان يبنى عليها شعريته.

***

نشأت قصيدة النثر العربية فى ظل مرجع تنويرى أو جذرى. ليس المعنى فقط هو ما كان جذريا ، بل اللغة أيضاً. كانت اللغة هى إحدى طرق التغيير ، فالمجتمع بشكل ما كان يسكن اللغة، وأى جديد فى تراكيبها وعلاقاتها ، قادر على أن يصل إلى ذائقة وحساسية المجتمع. بتلاشى هذا المرجع النقدى ، تحت ضغط الحياة الحديثة واليأس من التغيير؛فقدت قصيدة النثر أهم مراجعها، أو المجال الذى تتحرك فيه اللغة الشعرية، المجال الذى كان يمنحها الشكل.

اعتقد أن النماذج المبهرة لقصيدة النثر ، والتى ظهرت فى الستينيات والسبعينيات ، برغم عدائها للتفسير الكلى والشامل للفرد ، إلا أنها استفادت من هذه العدائية . فقد ساهمت هذه النماذج ، بحسها النقدى ، فى خلق نموذج جديد ضد النموذج السائد.لاأعرف الآن ماهو النموذج الذى يجب الوقوف ضده، وكيف نكون الوعى النقدى؟

***

الثقة التى منحها المجتمع للغة، وبالتأكيد للآدب وأشكاله المختلفة؛ عاد مرة أخرى ليسحبها، بعد التيقن بأن اللغة وتجلياتها غير قادرة على التغيير، ولا يمكن أن تكون بديلا عن الحياة. لاأعرف لماذا كانت المقارنة تقوم ، فى الآساس، بين اللغة والحياة؟ ربما هو مأزقنا المعرفى، أن ننشىء ثنائيات ، كل طرف فيها مهم وعلينا أن نختار بينهما. الآدب بكل أشكاله يقف فى موضع الاتهام والمساءلة والحساب، وخاصة الآنواع الادبية التى كانت تحمى نموذج المتمرد. كل هذا تم فى صمت وبدون ضجة، أعنى أن سحب الثقة تم تدريجياً وبدون تعمد .

***

رغم فداحة الأزمة التى تعيشها مجتماعاتنا،إلا أنها غير ممثلة بحق فى الانواع الادبية،وتحولت الازمة داخل النصوص إلى إطار سميك من الاحباط واليأس. فمن أين تستعيد أى لغة نشاطها وفلسفتها وهى غائبة عن التعبير عن الأزمة وتفنيدها.

كذلك ، الحوار، بمعناه الواسع، أصبح غائباً ،ومايوفره من تعدد هام لأىشكل أدبى. فالحوار هو المكان الخام الذى تستمد منه أى شعرية وجودها. وبرغم أن قصيدة النثر غير حوارية بمعناها الفردى أو غنائية بشكل ما ، إلا أنها لا تتحقق ولا تستمد قوتها إلا وسط حوار دائر حولها. حتى لاتصبح غنائيتها أو وحدتها مضاعفة.

تعطل وغياب الحوار جعل أى نوع أدبى، وحديث كقصيدة النثر،يفقد جزءاً من مهنيته وتقنيته. فلم تعد هناك اسئلة وقضايا مثارة حول الشكل الأدبى ، وبالتالى لم تضف أى تفسيرات جديدة على هذا النوع . بالتأكيد أصبحت قصيدة النثر الآن هى الشكل المسيطر ، ولكنها سيطرة هشة ، نظراً لغياب التأصيل النقدى.

اقصد النقد بمعنى التدقيق والتصنيف واشاعة جو حيوى وخلافى من القضايا. كل هذا هام لخلق نوع من الأحاسيس العلمية اللازمة لأى تأسيس أو استمرار. هذا النوع من النقد سيضع قصيدة النثر فى حجمها الطبيعى ، ويفسر هذه السيطرة التى دانت لها ، وهل هذه السيطرة تعبر عن حداثة تعبيرية ، وكيف نجا هذا النوع الأدبى من عشوائية حداثتنا ، إذا جاز التعبير. و هل أصبحت قصيدة النثر شكلا مفرغا من فاعليته؟

***

بالرغم من كل هذه العوامل المضادة للشعر والشعرية ، فمازال هذا النوع من التعبير، أياً كان شكله ، مثار اهتمام. حتى ولو كان اهتماماً نخبوياً يرتبط فقط بمن يكتبونه. الكل يتفق على أهمية الشعرية، وامتدادها فى أكثر من نوع أدبى وفنى . فمصدر هذه الشعرية هو الشعر، هو الذى أوحى بهذا الشكل من التعبير المحمل ، لذا فهو مشارك أصيل فى أى لحظات تحول . الشعرية مثار سؤال دائم ، ربما هى أحد الأماكن الكثيفة لتمثل الإنسان ، والتى لن ينازعها فيها نوع أدبى آخر. ربما يطرأ سؤال ، وهل من المهم الآن وجود هذا الشكل الكثيف واللامرئى لتمثل الإنسان؟
إذن الصراع الان مع الوضوح الذى تطرحه الفنون البصرية ومدى سطوتها، لأنها تصنع تمثلا سطحيا وعابراً للإنسان، ليس لأنها غير جيدة ، بل لارتباطها بوسائل الانتاج الضخم .وهنا أهمية الشعر والشعرية ، أن تصنع تمثلاً عميقاً للإنسان وغير مستهلك ،وأى نوع أدبى آخر له نفس الجدارة سيكون له الاستمرار.

الشعر والشعرية شاركا فى لحظة تأسيس وعى الإنسان بنفسه وبالوجود ، وانعكاس صورته فى مرايا مكتوبة حوله. الدين كان أحدى هذه المرايا، والشعر والكتابة والفن مرايا أخرى ، تشترك

فى نقاط وتختلف فى أخرى.ولكنها جميعاً شاركت فى لحظة التأسيس ، باختلاف الترتيب الزمنى ، فوعى الإنسان مازال يتشكل حتى الآن مع كل وسيط أو نوع أدبى أو فنى جديد. لذا فأى ضعف يصيب إحداها سيؤثر فى الأنواع الأخرى ، ومنها الشعر والشعرية.

ربما سيختفى الشعراء ، ولكن ستبقى الشعرية . وهذا الاختفاء سيأخذ زمناً حتى يحدث ، فمازلنا داخل عصور يشغلها الوعى الباطنى للفرد ومكان سؤالها.ربما لن ينازع الشعر نوع آخر يرى فيه الإنسان نفسه ، بهذه الدقة والرقة ، والرهافة . لقد اختزن الشعر نموذجاً نوعياً لايسهل التفريط فيه. فليست المشكلة أهمية أو عدم أهمية الإيقاع ، فتلك امراض النوع الأدبى ،لأنه وسيط ضارب فى الغور ، فسيعكس أزماته وأمراضه على المجتمعات المؤمنة به.

ربما يكون الشعراء غير ممثلين لمجتمع ، ولكنهم ممثلين لنوع أدبى هام. وهذا النوع ، حتى ولو لم يلتفت له المجتمع كله ، فهو أحد أركانه اللامرئية التى تشارك فى صياغة مزاجيته، ووعيه بنفسه. الشعر كمخزن للرموز ولنشاط اللغة ولصور الإنسان ، من الصعب أن يمتلك نوع آخر تلك الصفات، ويعكس مايعكسه الشعر.

***

ربما ما حفظ قصيدة النثر حتى الآن هى تقنية الحكى، وهى التقنية التى أتت من حقول أدبية أخرى. أصبحت الحكاية هى بوصلة القصيدة لضبط الشكل والنفس الشعرى. أعتقد أن المستقبل ، بمعنى ما، سيرتبط بهذا النوع من السرد الحكائى.

***

ستستمر قصيدة النثر بانفرادات شخصية ، بموهبة شعراء وحدسهم ، وعمق أسئلتهم الوجودية، ووعيهم كذلك بخصوصية الشكل الشعرى الذى يعملون داخله. إذا كان نموذج التمرد الذى تمحورت حوله قصيدة النثر من قبل، سواء كان التمرد الحياتى أو اللغوى ، فنشاطهاالحالى ومشروعيتها ، كنموذج نقدى بالأساس، هوإيجاد سيرة جديدة للتمرد، بمعناه الانسانى والوجودى وليس السياسى فقط ؛ كمقاومة أخيرة ضد غياب الفرد وموته المتعمد والمجانى والصامت.

علاء خالد